المحاضرة الرابع عشرة مناهج أخرى (المنهج البنيوي ،المنهج المعياري، .....)

لعل أبرز المناهج التي ينبغي ذكرها بعد تلك التي تناولتها المحاضرات السابقة ، المنهج البنيوي و المنهج المعياري ، وهذا ما سنقف عنده ، مع الإشارة إلى بعض المناهج الأخرى .

المنهج البنيوي (النشأة والتطور) .

ظهرت البنيوية اللسانية في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين مع رائدها (فرديناند دي سوسير)، من خلال كتابهِ "محاضرات في اللسانيات العامة"، الذي نُشر في باريس سنة 1916م، وقد أحدثت هذه اللسانيات ابستمولوجية "معرفية" مع فقه اللغة والفيلولوجيا الدياكرونية ، وكان الهدفُ من الدرسِ اللساني هو التعامل مع النص الأدبي من الداخل وتجاوز الخارج المرجعي واعتباره نسقًا لُغويًا في سكونهِ وثباتهِ، وقد حقق هذا المنهج نجاحه في الساحتين اللسانية والأدبية حينما انكب عليه الدارسون بلهفة كبيرة للتسلح به واستعماله منهجًا وتصورًا في التعامل مع الظواهر الأدبية والنصية واللغوية .

وأصبح المنهج البنيوي أقرب المناهج إلى الأدب؛ لأنه يجمع بين الإبداع وخاصيته الأولى وهي اللغة في بوتقةٍ ثقافيةٍ واحدة، أي يقيس الأدب بآليات اللسانيات بقصدِ تحديدِ بُنيات الأثر الأدبي وإبراز قواعده وأبنيته الشكلية والخطابية ، فظهرت البنيوية في بداية الأمر في علم اللغة، وبرزت عند فرديناند دي سوسير الذي يعد الرائد الأول للبنيوية اللغوية عندما طبق المنهج البنيوي في دراسته للغة، واكتشاف مفهوم البنية في علم اللغة دفع بارت وتودوروف وغيرهما إلى الكشف عن عناصر النظام في الأدب[1] .

أما عن نظرية دي سوسير في علم اللغة، فهو يرى أنَّ موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتِها ومن أجلِ ذاتها، وقد فرّق بين اللغةِ والأقوالِ المنطوقةِ والمكتوبةِ، فاللغة أصواتٌ دالةٌ متعارف عليها في مجتمع معين، وإن لم توجد كواقع منطوق لدى أي فرد من أفرادهِ، أما الأقوال فكل الحالات المتحققة من استعمالات اللغة، ولا يكون واحد منها، بل ولا يلزم أن تكون جميعها ممثلة للغة في كمالها ونقائها المثاليين.

إذن ففي دراسة اللغة لا بد من عزلها واعتبارها مجموعة من الحقائق؛ لأن اللغة بالتحليل السابق هي نظام إشاري (سيميولوجي)، أي إن علم اللغة يهتم باللغة المعينة ولا يلتفت إلى لغة الفرد؛ لأنها تصدر عن وعي ولأنها تتصف بالاختيار الحر ومن هنا انطلقت البنيوية من حقلِ علم اللغة إلى حقل علم الأدب، فسوسير في نظريتهِ كان يفرقُ بين اللغةِ والأقوال أو بين اللغة كنظام واللغة كاستعمال كلامًا أو كتابةً، فإن البنيويين يفرقون كذلك في علم الأدب بين الأدب والأعمال الأدبية .

أما عن فكرة النظام أو النسق الذي يتحكم بعناصر وأجزاء النص مجتمعة، والذي يمكن أن يظهر من خلال شبكة العلاقات العميقة بين المستويات النحوية الأسلوبية والإيقاعية، فهي مستمدة من فكرة العلاقات اللغوية التي تعد أساسًا من أسس نظرية دي سوسير والتي وضحها حين قال بأن اللغة ليست مفردات محددة المعاني ولكنها مجموعة علاقات ، بمعنى أن الكلمة لا يتحددُ معناها إلا بعلاقتِها مع عدد من الكلماتِ، بما سبقها وما لحقها، كما إن العلاقة بين صوت الكلمة ومفهومها كما يرى دي سوسير هي علاقة تعسفية بمعنى أنه لا علاقة لمفهوم الكلمة بصوتها بدليل اختلاف صوت هذا الشيء بين لغة وأخرى، إذن فبناء اللغة أو نظامها لا يتمثل إلا في العلاقات بين الكلمات، وهي تمثل نظامًا متزامنًا حيث أن هذه العلاقات مترابطة .

ونودُ أن نشيرَ إلى أن البنيويةَ كانت في أول ظهورها تهتم بجميع نواحي المعرفة الإنسانية، ثم تبلورت في ميدان البحث اللغوي والنقد الأدبي ،والسؤال الذي أودُّ أن أطرحه هنا إذا كانت هذه العلوم الإنسانية كلها علوم بنيوية، فلماذا تبدو البنيوية الفرنسية جديدة ومثيرة ؟ أعتقدُ أن الجواب عن هذا السؤال يكمن في المعنى الجديد الذي أضفته البنيوية على كلمة بنية ، فالمنهج البنيوي هو نموذج تصوري مستعار من علم اللُّغة، عند دي سوسير في المحل الأول بكل ما يلزم من هذا النموذج من نظرة كليّة تبحث عن العلاقات الآنية التي تُشكل النسق، وتسلم كل التسليم بثنائيات متعارضة تعارض اللغة، والكلام، والآنية، والتعاقب، وعلاقات الجمهور، وعلاقات الغياب[2] .

فاللغة هي الرحم الأوّل لنشأة المعيار البنيوي، إذ هي عبر هندستها المتجدّدة وتلازمها الوظيفي مع اللحظة التاريخية تمثل صورة الانبناء كأحسن ما يكون التصوير، فإن المعرفة اللسانية قد استوعبت الفكرة البنيوية فجلت ملامحها ووضعت المفاهيم المؤدية لها ، ومن أبرز ما استحدثته البنيوية هو إدخال عامل النسبية في تقدير الظواهر والتخلي نهائيًا عن ناموس الإطلاق الذي قيّد العلم اللغوي تاريخًا طويلاً، أما مِفتاح هذا التحول وهذا التغيير فيتمثل في التمييز الذي علينا أن نعتبر به في تحليلنا للغة بين الزمن الطبيعي، وهو البعد الموضوعي لتوالي الأحداث وتعاقب أجزاء الكلام المعبّر عن تلك الأحداث، والزمن التقديري الذي هو موقف افتراضي يقوم على القيمة الاعتبارية للأشياء كما تعبر عناه اللغة، وهو الزمن التقديري وهو بالتحديد جوهر الفكرة البنيوية وهو بالتالي المعين الذي تستمد منه سطوتها المنهجية ، وهنالك من النقاد العرب من يرى أن البنيوية لها جذور عند نقادنا القدامى، فعبد القاهر الجرجاني هو صاحب نظرية النظم، وهو يرى أن ليس للفظة في ذاتِها ــ لا في جرسِها ولا في دلالتِها ــ بين الألفاظ والمعاني والمعاني هي المقصودة في إحداث النظم والتأليف.

ويعقب جودت الركابي بعد هذا الحديث بقوله: "ما رأيكم في هذا الكلام الذي قيل قبل قرون سحيقة على لسان عبقري من عباقرة لغتنا، وأية نظرة صائبة في بيان علاقة اللفظ بالمعنى أو بما يسميه نقادنا العرب بـ (السياق)" [3].

إذن فالأجزاء لا معنى لها دون هذه النظرة العلائقية التي يحكمها النظم، فعلينا أن نُدرك هذه العلاقة في النص لندرك قيمته، فقيمة النص تكمن في قيمة علاقة عناصره وأجزاءه ببعضها البعض وترابطها، والخصائص التي تضفي على تلـــك العـــــلاقات ككل.

فنخلص مما سبق بأن أوّل من طبق البنيوية اللسانية على النص الأدبي في الثقافة الغربية نذكر كلا من رومان جاكبســـون وكلود ليفي شتراوس على قصيدة (القطط) للشاعر الفرنسي بودلير في منتصف الخمسينات، وبعد ذلك طُبقت البنيويـــة علـــى السرد مع رولان بارت وكلود بريموند و تودوروف، كما ستتوسع ليدرس الأسلوب بنيويًا وإحصائيا مع بـــيير غـــيرو دون أن ننسى التطبيقات البنيوية على السينما والتشكيل والسينما والموسيقا والفنون والخطابات الأخرى .

المنهج المعياري: ساد هذا المنهج الدراسات اللغوية القديمة ، بدأ وصفيّا ، ثمّ انتهى معياريّا ، أي أنّه قام في البداية على سماع المادة اللغوية وجمعها ، وروايتها للخروج بعد ذلك بقواعد لها طبيعة الوصف اللغوي ، لكنّ هذا المنهج سرعان ما تحول إلى معياريّ،

و قد نشأ النحو العربي نشأة وصفية ، باعتماد الاستقراء ، ولكنه جنح صوب المعيارية ، بعد أن وضعوا القواعد والأصول ، وتوقفوا عن استقراء المادة اللغوية ، فبرزت اللغة الرسمية ممثلة بهذا ، واعتبرت مقاييسه وقواعده فيصلا في الصحة والخطأ . وغالبا ما تكون المعيارية في أول الأمر لهجة محلية تنال شيئا من التمجيد ، أو التقدير ، ويعترف بها كلغة رسمية ، فالمعيارية بهذا المفهوم هي اللهجة التي تتخذ مقياسا للفصاحة والبلاغة كتفضيل لهجة قريش في الدراسات العربية على سائر اللهجات لأسباب دينية وسياسية ، ثم تكون هذه اللهجة نواة للمنهج المعياري ، وتتخذ قواعدها معيارا للخطأ والصحة كما في تاريخ العربية، إنّ الهدف الذي نشأ من أجله النحو العربي هو منع اللحن والخطأ ففرضت عليه أن يكون معياريا لا وصفيا [4].

منهج الفنون الأدبية : يقوم على دراسة الأدب العربي دراسة تعتمد على تصنيف نتائجه إلى فنون أو أنواع أدبية وعلى تتبع هذه الأنواع عبر الزمن لمعرفة تطورها وأثر السابق باللاحق.ويقوم المنهج الفني على أسس فنية تُعدّ قواعد وأصولا له ، ومن أهدافه : 1- تمييزالجنس الأدبي 2- توضيح القيم الشعورية والتعبيرية 3- معرفة خصائص الأديب من الناحية الفنية والتعبيرية ، ويركز على شيئين أساسيين : 1- التأثر الذاتي من الناقد 2- عناصر النص الموضوعية والأصول الفنية ويقوم على مواجهة النص المراد تحليله ونقده من خلال تمييزجنسه شعرا أو نثرا وما مدى توفر الخصائص المقررة من قبل العلماء لكل جنس أدبي. كما يدرس الخصائص الفنية المشتركة بين الأدباء جامعاً بين الأدب والنقد من جهة وبين الأدب والعلم من جهة أخرى مصنفاً الأدباء حسب خصائصهم الفنية فقط[5] .

المنهج الاجتماعي : يرى القائمون على المنهج الاجتماعي أن الأدب مرآة تعكس المجتمع بكل مظاهره السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية ، وقد تبلور هذا المنهج في كتابي طه حسين : ذكرى أبي العلاء المعري ، وحديث الأربعاء في جزئيه : الأول والثاني . يصل هذا المنهج بين دراسة الأدب والدراسات الاجتماعية إذ إن الأدب تعبير عن المجتمع ولا يوجد أدب دون مجتمع ينبثق منه كما يدرس الظواهر الاجتماعية في البيئة التي ينتمي إليها الأديب وطبقته الاجتماعية وما عاش فيه من أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وغيرها .

منهج الجنس : يدعو إلى دراسة الأدب تبعاً لأجناس الأدباء وهذا المنهج غير صالح لدراسة الأدب في المجتمع العربي القائم على خليط من الأجناس المختلفة .

المنهج النفسي : يُعَدّ العنصر النفسي عنصرا أصيلا وبارزا في العمل الأدبي ، وهو الذي يتكفّل بالإجابة عن الأسئلة الآتية : كيف تتم عملية الخلق الأدبي ؟ ما هي طبيعة هذا العمل من الوجهة النفسية ؟ ما العناصر الشعورية وغير الشعورية الداخلة في العمل الأدبي ؟ ما العلاقة النفسية بين التجربة الشعورية والصورة اللفظية ؟ ما دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه ؟ هل تستطيع من خلال الدراسة النفسية للعمل الأدبي أن تستقرئ التطورات النفسية لصاحبه ؟ كيف يتأثر الأخرون بالعمل الأدبي وغير ذلك[6].

ـ **المنهج الإقليمي**: يدرس الأدب حسب الإقليم ، فيدرس الأدب العربي مثلاً في مصرأو في الشام أو في المغرب أو في الخليج .

المنهج الطبيعي :ينكر هذا المنهج التذوق الشخصي وكل ما يتصل بالذوق وأحكامه ويطبق على الأدباء جميعاً قوانين واحدة كما تطبق قوانين الطبيعة على جميع العناصر مسقطاً كل ما يمتاز به الأدباء من فردية أو ذاتية .

ـ**المنهج الجمالي** : يبحث في إدراكنا الجمال ومقاييسه وأحكامنا عليه والعلل التي تثير فينا الشعور بالجمال عند هذا الأديب أو ذاك ومصدر الجمال في هذا الإبداع وحقيقته ومعاييره .

ـ **المنهج الذاتي (الموضوعي)**: يدعو هذا المنهج إلى تذوق الآثار الأدبية وإلى تصوير ووصف إحساسنا وانفعالنا بها ومدى تأثيرها في قلوبنا وعقولنا [7].

هوامش و مراجع المحاضرة :

1. انظر :جميل حمداوي، ما البنيوية؟، دراسات وأبحاث أدبية، موقع على الإنترنت http://www.rezgar.com .

2. 3-انظر : جودت الركابي، **أدبنا والبنيوية**، مجلة الموقف الأدبي، العدد 220 ــ 221، آب 1989م .

4- من أسس علم اللغة، لمحمد حبلص، دار الثقافة العربية، 5999 م ص151-152.

5- انظر :حسام الخطيب، **البنيوية والنقد العربي القديم**، مجلة الموقف الأدبي، العدد 182، حزيران 1986م .

6- انظر :غسان طعمة، **البنيوية في الأدب**، مجلة الموقف الأدبي، العدد 180، نيسان 1986م .

7- مزهر حسن الكعبي، **البنيوية والتحليل البنيـــوي في الـــنص الأدبي**، جريـــدة الجريـــدة، موقـــع علـــى الانترنـــت http://www.aljaredah.com/ .